محمّد عفيفي مطر

قصيدتان

يتحدّث الطمي

من اطلق مهر الصيف ؟
يجري بسنابكه الخضر على اطراف الجسر
بصهيل صلصل فيه جرس العشب
وزفير ينضح بالزبد الفضيّ .

من اطلق مهر الصيف ؟
ينطلق فترقص معرَفةُ خضراء
يندفع الى تيار الماء
مرتعشا يقطف ازهار البشنين
يقتات من الياسنت ويركض في الاعماق
ويشمّ العشب النابت في ارحام الطين
ويخوض خلال الطحلب والاصداف
يندفع الى الشمس المصلوبة فوق الجسر
ويشبّ على رجليه وتلمع في عينيه الريح .

من اطلق مهر الصيف ؟
حمّلني ما حمّله الطميُ من الاثمار
اثقلني بالطير النائم في الاشجار
وانطلق فدقّ الحافرُ وجه الطفل
اسقط حملي ، اسقط حملي مهرُ الصيف .

نبعٌ من ذهب وجزائرُ فضية
وطيور حمرٌ شتوية

وزهور دماء
وضفائر ماء
وشموس تلمع في العينين الصافيتين .

من اطلق مهر الصيف ؟

مِن « الشَمس التي لا تشرِق »

١

جوفها الطينيّ بالجوع احترق
اخرجت السنة الجوع الى الدنيا طرق
تسأل الزارع قمحا وعرق
آه ، تستجديك يا سحب مياه
تشرب القيظ نهارا فنهارا
روحها تلعق شيئا يتوارى
حينما ترتعش الادرب في الليل تعود
تدخل الدور بلا قمح وماء
تسهر الليل لكي تغسل آثار النهار
بين عيني طفلة لم تشهد النور وما زالت
جنينا بين ارحام الخيال .

٥

هنا زورق قلبته الرياح
دفنتُ روايته في دمي
واغرقتُها في ضجيج الصباح
وضيّعتُ آثارها ونسيتُ
مذاق الدموع وصوت الجراح
وبالامس كان اصفرار الوجوه
ومقبرةٌ للصبا المفعمِ
وصبارةٌ تشرب الصهد فوق
صغير ثوى — آه ، لم يفطمِ

وثاكلةٌ مزّقتْها الظهيرةُ
تبكي الثرى ، خضرة البرعمِ
فذكّرني صوتها المستجيرُ
بامسِ ثوتْ نارُه في دمي
وفي ضوئه الهمجيّ رأيت أبي
يتحطم فوق الطريق
وامي التي اكلتْ ثديَها
ضيّعتْها رياحُ الظلام العميق
واختي التي جرفتْها الرمالُ
فكانت كتمثال شمع غريقْ
هووا ، صرخاتٍ مضيعةً
وطواهم من الرعب قاسٍ سحيقْ .

٨

الليل عريانٌ تخرخر في اصابعه المياه
تتحدّر القطرات من راحاته بين الشقوق
تمتد أيدٍ ، ترتخي الاجفان ، تلعب رغبة
صدى باعماق القلوب
تتهدج الانفاس ، يرتجف العصير بقلب اعواد الشجر
الليل عريان فنامت اصبع الاطفال في دفء الشفاه
وسمعتُ غرغرة الجداول غمغمتْ بين الشجر
فخرجتُ عريان الهواجس ، رعشة الحمى معي
افنى وارجع للحياه
القى علينا الليل فضل عباءة سوداء فارتعش الكلام
فلتات ما قلناه فضّحها وعرّاها الظلام .
— « ماذا رأيتِ ، حبيبتي ، بعد الرحيل الى الشمال ؟ »
— « ثلجا تكوّم وانحنى مثل الجبال » .
— « وحكاية السنتين ، هل خطرت بقلبك في الجبال ؟
هل ادفأتكِ ، رأيتِ وجهي الاسمر المعروق يهتف بالالم
وسمعتِ قلبي اذ تغرّب في الرياح ؟ »

— « الثلج ابيض ، والشتاء مخيم ، والنوم فاكهة
تجيء بلا اوان » .
فعرفت اني قد دُفنتْ هناك في ثلج الشمال .

٩

تنفست الغابة النائمة
والقت مناماتها للقمرْ
وغمغم فيها العبير الغريبُ
وطارحه البوحَ وقعُ المطرْ
واشباحها رقصت في العراءِ ،
تثاءب في جانبيها الحذَرْ .
افاقت من النوم اطيارها
ترّوعها كلمات الشجرْ
فطارت بالوانها الغامضات
وغابت عن الكون . غاب القمرْ .
عبيرك يا غابة الليل فاح
واضرم في القلب احساسَهُ
وحيرني وجهك المستريبُ ،
عبدت خفاه واياسَهُ .
تنفست يا غابة الليل في القلب ،
احرق عطرك انفاسَهُ
وغمغمةُ الريح ، صوتُ الرحيل
يدقّ لي الكون اجراسَهُ
فيا غابة الليل ، يا امنا
تحرقتُ عمري على المنحدر
وغمغمةُ الريح ، صوتُ الرحيل
ينادي بنا : « الفرار . الفرار » .

١٠

حطّت الرؤيا فكانت خيمة من غير باب

رقص الكون على السلم من غير ثياب
قلت : « يا قافلة الليل خذي قلبي معك
اعشق السيرَ الطويلْ
وانصهارَ الشمس في افق غريب مستحيلْ » .
حطّت الرؤيا . فلم اشعر باقدام الفصول
وهي تمضي في ذهول
ريحها تطمس آثار الشباب
آه ، ما احلى الرؤى والقلب في فجر الشباب .

١٨

حينما تعبر دربي ياقمر
اخضرَ الوجه ، عميقَ الصوت ، مرخيَّ الجفون
عاقدَ الكفّ على الصدر تواري حزنك الصافي الدفين
اتركُ الرؤيا وقلبي شعلةٌ
بين الحنايا مطفأة
ضوؤك المرهق لا يشعل في
القلب رماد الانتظار

حينما تعبر دربي يا قمر
احمل الظلمة في صدري سراج
حينما تشرق في جوف سماوات أخر
حينما ينهدل الشِعر طريقا للسفر
اتركُ الدرب ، اناديك : « انتظر
ريثما اترك في الدرب السراج » .

١٩

تمهل ، تمهل ، تمهل ،
على مزلق الضوء وانظر لنا يا قمر
ولا تغرق الآن ، واصلب خطاك القصارْ
وكمّمْ فم الجرح في صدرك اللين المستطارْ

وغطِّ باثوابك النهدَ ، واصعد من البحر ،
وانظر قتيل القفارْ
قتيل الهزيع الاخير
من الليل ، ما زال وقتٌ ويأتي الهزيع الاخير
فلا تغرق الآن . وجهي انا معبر للخيول
وصدري طريقٌ ، وثورٌ سيدمي بقرنيه قلبي
وان جرّني ظلفه ساعةً في الوحول
سيمضي اذا ما تخلّع مني الكيان
سيتركني مُزقةً في رياح الردى
ترف قليلا وتسقط في هوة الاحتضار
فلا تغرق الآن ، واصعد من البحر حتى يحين الرحيل
وأسندْ الى صدرك الرخو رأسي
وكمّمْ جراحي باثوابك البيض ،
اغلق بكفيك عيني
وضمد بنهديك جرحي . فعيناك خبزي الاخير
ونحن القتيلان في القفر بعد الهزيع الاخير .

٢٩

ويا ريحنا المقمرة
تعالَيْ من الصمت (يا بلبل الفضة المغترب)
تعالَيْ الينا خلال المسافات ، صبّي
لنا قلبك المنسكب
خذينا ايا امنا واغسلينا
باحواضك الطائره
ضعي ساعديك الرقيقين حول المدينة
لكي تُسمعيها صدى قبلة الطمي والشمس والغيمة الممطرة
تغنّيْ بابوابها العنكبوتية الصمت ، علّ الرجال
يفيقون من رعبهم في مغازي الاسرّة
ودقّي بشبّاكها خنجرَ الشعر على النساء الخبيثات
يعصرن اثداءهن الرهيبة

ويا بلبل الريح ، يا طائر الفضة البربرية
تلفّتْ حواليك ، فالارض احبولة واغتيال
تلفّتْ حواليك ، فالارض قد اثمرت في سرير الطغاة
سفاحا ، فجاءت بنسل بلا انفس او قلوب
فرفرفْ عليها لكي تعصر الثدي من دوده
والعصير المميت
وحوّمْ عليها لكي تدفن العار في صدرها الرحب ،
وارقصْ لها قبل عرس الزمان الجديد
تحدّثْ اليها عن الشعر والعشب واصعدْ
بها في غمام البراءة
وخذْها لتبكي خلال القرى بعد ان
ينتهي ما بها من ذرة.
ويا بلبل الطمي والريح ، ضعْ خنجر الشعر تحت المدينة
واغمدْه في روحها المقفره .

حزينٌ انا . فالمرارات نزّت دما من ضلوعي
وعذرا أيا قريتي الصابرة
فما اتفه القول ، ما اتفه القول ،
ما اتفه القائلين الصغار
فعذرا أيا قريتي ، واغفري ما بنا من صَغار .

ويا قريتي ، يا طيورا مسائية جائعة
خذيني لصفصافة الموت . لكن أعيدي
دمي نخلة او طيورا مسائية او هواء
خذيني باحضانك السمر جميزةً من غناء
خذيني لارماد عينيك قارورةً من دواء
خذيني أيا قريتي وارحميني
خذيني أيا قريتي وارحميني ارحميني ارحميني .